

## القاضي التنوخي

للأستاذ يوسف يعقوب مسكوني

(تمة ما نشر في العدد الماضي)

وأما أسباب عزله فتلخص بما يأتي : قال الرئيس أبو الحسن هلال : وفي شهر ربيع الأول سخط عضد الدولة على القاضي أبي علي المحسن بن علي التنوخي وأزّم منزله وُصرف عما كان يتقلده . وكان السبب في ذلك ما حدثني به أبو القاسم علي بن المحسن التنوخي قال حدثني أبو علي والدي قال : كنت بهمدان مع الملك عضد الدولة فاتفق أن مضيت يوماً إلى أبي بكر بن شاهويه رسول القرامطة والتوسط بين عضد الدولة وبينهم ، وكان له صديقاً ومي أبو علي الهائم وجلسنا نتحدث ، وقعد أبو علي على باب خرگاه<sup>(١)</sup> كنا فيه وقدم إليه ما يأكله ، فقال لي : اجعل أيها القاضي في نفسك المقام في هذه الشتوة في هذا البلاد . فقلت لِمَ ؟ فقال إن الملك مدبر القبض على صاحب أبي القاسم بن عباد ، وكان قد ورد إلي حضرته بهمدان ؛ وإذا كان كذلك تشاغل بما تتناول معه الأيام . وانصرفت من عنده ؛ فقال أبو علي الهائم قد سمعت ما كتما فيه وهذا أمر ينبغي أن تطويه ولا تخرج به إلى أحد ولا سباً إلى أبي الفضل بن الشيرازي . فقلت أفعل ، ونزلت إلى خيمتي ، وجاءني من كانت له عادة جارية بملازمتي ومواصلي ومواكلتي ومشاربتي وفيهم أبو الفضل بن أحمد الشيرازي ، فقال لي : أيها القاضي أنت مشغول القلب فما الذي حدث ؟ فاسترسلت على أنس كان بيننا وقلت أما علمت أن الملك مقيم وقد عمل على كذا في أمر صاحب وهذا دليل على تطاول السنة . فلم يتالك أن انصرف واستدعي ركابياً من ركابتي وقال له : أين كنتم اليوم ؟ فقال عند أبي بكر بن شاهويه . قال : وما صنعتم ؟ قال : لا أدري إلا أن القاضي أطال عنده الجلوس وانصرف إلى خيمته عنه ولم يمض إلى غيره . فكتب إلى عضد الدولة رقعة يقول فيها : كنت عند القاضي أبي علي التنوخي . فقال كذا وكذا وذكر أنه قد عرفه من حيث لا يشك فيه وعرفت أنه كان عند أبي بكر ابن شاهويه وربما كان لهذا الحديث أصل ؛ وإذا شاع الخبر به وأظهر السر فيه فسد ما دُبّر في مناه . فلما وقف عضد الدولة

(١) القبة التركية فارسية مرعياً خرگاه

على الرقعة وجم وجوماً شديداً وقام من سباط كان قد عمله في ذلك اليوم على منابت الزعفران للديم مغيظاً ، واستدعاني وقال لي : بلغني أنك قلت كذا وكذا حاكياً عن أبي بكر بن شاهويه فما الذي جرى بينكما في ذلك ؟ فقلت لم أقل من ذلك شيئاً ، فجمع بيني وبين أبي الفضل بن أبي أحمد ووافقني وأنكرته ، وراجعتي وكذّبتني ؛ وأحضر أبو بكر بن شاهويه وسئل عن الحكاية ، فقال : ما أعرفها ، ولا جرى بيني وبين القاضي قول في معناها . وتقل على أبي بكر هذه الموافقة وقال : ما تعامل الأضياف بهذه المعاملة . وسئل أبو علي الهائم عما سمعه فقال : كنت خارجاً من الخرگاه ، وكنت مشغولاً بالأكل وما وقفت على ما كانا فيه . فد وضرب مائتي مفرقة ؛ وأقيم فنفض ثيابه . وخرج أبو عبد الله سعدان - وكان لي حياً - فقال لي : الملك يقول لك : ألم تكن صغيراً فكبرناك ، ومتأخراً فقدمناك ، وخاملاً فنبهنا عليك ، ومقترراً فأحسننا إليك ؟ فما بالك جحدت نعمتنا وسميت في الفساد على دولتنا ؟ قلت : أما اصطناع الملك لي فأنا معترف به ، وأما النساد على دولته فاعلمت أنني فعلته ؛ وجلست مكاني طويلاً ، وعندى أنني مقبوض على ، ثم حملت نفسي على أن أقوم وأسبر الأمر ، وقت وخرجت من الخيمة ، فدعا البوابون دابتي على العادة ، ورجعت إلى خيمتي منكسر النفس متكسف البال ؛ فصار الوقت الذي أدعى فيه للخدمة ، فجاءني رسول ابن الحلاج على الرسم ، وحضرت المجلس فلم يرفع الملك إلى طرفاً ، ولا لوى إلى وجهها ؛ ولم يزل الحال على ذلك خمسة وأربعين يوماً ، ثم استدعاني وهو في خرگاه وبين يديه أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، وعلى رأسه أبو التناء شكر الخادم فقال : وبلك ! أسدقني عما حكاه أبو الفضل بن أحمد ؛ فقلت كذب منه ؛ ولو ذكرت لمولانا ما يقوله لما أقاله العثرة ؛ فقال : أو من حقوق عليكم أن تسيثوا غيبي وتشاغلوا بذكرى ؟ فقلت : أما حقوق النعمة فظاهرة ، وأما حديثك فنحن نتفاوضه دائماً ... ثم قال عضد الدولة : عرفنا ما قاله أبو الفضل . قلت : هو ما لا ينطق لساني به ؛ فقال : هاته ... وكان يجب أن تعاد الأحاديث والأقوال على وجهها من غير كناية عنها ولا احتشام فيها . فقلت : نعم ؛ قال : ( وذكركه بعض النقائق قهرها ) ... ثم قال : وقد ذكر هذا الأستاذ وأومات إلى أبي القاسم وأبي الريان وجماعة الحواشي فقال : ما قال في

لأحد في الدخول عليك، فيه إلا نفر من أصدقائي استأذنت فيهم فاستثنى بهم. ومضت الأيام وأنفذ إلى أبو الريان فطالبني بمشرة آلاف درهم وكنت استلقفها من أقطاعي فأديتها إليه، واستمر على السخط والصرف عن الأعمال إلى حين وفاة عضد الدولة. ثم قال غرس النعمة: فقال التنوخي السمع والطاعة، ومضى إلى بيته ولم يقدم على الطائع، وخاف عضد الدولة إن خالف ما رسمه له، فأظهر مرضاً وعاده أسدقاؤه منه واعتذر به إلى عضد الدولة، فوقع لعضد الدولة باطن الأمر وأمر بعض الخدم الخواص بالمضي إلى التنوخي لميادته وتعرف خبره، وأن يخرج من عنده ويركب إلى أن يخرج من الدرب، ثم يعود فيدخل عليه هاجماً فإن كان علي حاله في فراشه لم يتخير له أمر، أعطاه مائتي دينار أصحبه إياها لنفسه وأطهر أنه عاد لأجلها لأنه أنسيها معه؛ وإن وجده قاعداً أو قائماً عن الفراش قال له: الملك يقول لك لا تخرج عن دارك إلينا ولا إلى غيرنا وأنصرف. قال الخادم: فدخلت إليه وهو في فراشه وعليه دناره وخطبته عن الملك وأعاد جواباً ضعيفاً لم أكد أنهممه، وخرجت ثم عدت على ما رسم الملك فهجمت عليه فوجدته قائماً يمشي حول البستان، فلما رأني اضطرب وتحمير فقلت له: الملك يقول لا تبرح دارك إلينا ولا إلى غيرنا، وخرجت فبقي على ذلك إلى أن مات عضد الدولة<sup>(١)</sup>»

تقول وذكره من بعد هؤلاء ابن خلكان؛ ولم يزد على ما ذكره المؤرخون ممن ذكروا هنا سوى كتاب (الستجدان من فترات الأجداد) وقد نوهنا به وأشارنا إلى أمره آنفاً في غير هذا. وقد نقل ابن خلكان عن الثعالبي والخطيب البغدادي

أما شعره فإننا نذكر منه هنا ما ذكره المؤرخون استطراداً في ترجمته وما اختاروه من شعره لما كان ديوان شعره من الدواوين المقفودة، لعل فيه شيئاً من الفائدة. ومن السابقين إلى رواية شعره الثعالبي قال: ومما علق بحفظ أبي نصر سهل بن المرزبان وأنشدني للقاضي أبي علي قوله وهو معنى طريف ما أراه سبق إليه: خرجنا لتستق بيمن دعائه

وقد كاد هذب النيم أن يبلغ الأرضا<sup>(٢)</sup>  
فلما ابتداء يدعو قشمت<sup>(٣)</sup> السما فإتم إلا والنعام قد انفضاً  
وأنشدني غيره له وأنا مرتاب به لفرط جودته وارتفاعه عن طبقته:

(١) معجم الأدباء لياقوت الحموي ج ١٧ ص ١٠٦ - ١١٦ ط. دار الأملون (٢) في وفيات الأعيان لابن خلكان ص ١٠ يلى « ج ١ ص ٥٦٤ ط. بولاق (٣) في وفيات الأعيان لابن خلكان وتكشفت ج ١ ص ٥٦٤ ط. بولاق

أبي القاسم؟ قلت: قال: إنه ابتاع من ورثة ابن ببيعة ناحية الزاوية من رازان<sup>(١)</sup> بأربعة آلاف درهم بعد أن استأذنتك استئذاناً سلك فيه سبيل السخرية والمغالطة، واستغلها في سنة واحدة نيفاً على ثلاثين ألف درهم، وأنه أعطى فلاناً وفلاناً ثمانية آلاف درهم على ظاهر البضاعة والتجارة، فأعطاه نيفاً وستين ألف درهم. فأت أبو القاسم عند سماعه ذلك، وأوردت ما أوردته مقابلته - أي معارضته - على ما ذكرني به. وحضرت آخر النهار المجلس في ذلك اليوم على رسمي، فعاود التقريب لي والإقبال عليّ. ثم رحلنا عائدين إلى بغداد، فرآني الملك في الطريق وعليّ ثياب حسنة وتحتي بغلة يمركب وجناح<sup>(٢)</sup> جواد؛ فقال لي: من أين لك هذه البغلة؟ قلت: حملني عليها صاحب أبو القاسم يمركبها وجناحها، وأعطاني عشرين قطعة ثياباً، وسبعة آلاف درهم؛ فقال: هذا قليل لك مما تستحقه عليه. فملت أنه أهمنى به وبأني خرجت بذلك الحديث إليه، وما كنت حدثته به وذكر غرس النعمة بن هلال قال: حدثني بعض السادة الأصدقاء، وأنسيته وأظنه أباطاهر محمد بن محمد الكرخي قال: كانت بنت عضد الدولة لما زفت إلى الطائع بقيت بحالها لا يقربها خوفاً أن تحمل منه فتستولى الديلم على الخلافة، وكان الطائع يجبها حباً شديداً زائداً موفياً... وتقدم عضد الدولة إلى أبي علي التنوخي في أواخر أيامه بأن يمضى إلي الطائع ويطارحه يناظره... في المنى... بأسباب يتوصل إليها وأقوال يصفها، ويؤي إلى الغرض فيها... رتبها عضد الدولة ولقنه إياها وفهمه قال التنوخي بعد قدومه إلى بغداد مع عضد الدولة فحكى لي أن الطائع لله متجاف عن ابنته المنقولة إليه... فنقل ذلك عليه وقال لي: تمضى إلى الخليفة... ويعود الأمر إلى ما يستقيم به الحال ويوزل منه الاتعباض فقد كنت وسيط هذه المصاهرة، فقلت: السمع والطاعة. وعدت إلى داري لأبس ثياب دار الخلافة، فاتفق أن رزقت ووثقت رجلي، فأنفذت إلى الملك أعرفه عندي في تأخرى عن أمره فلم يقبله وأنفذ إلى من يستعلم خبري، فرأى الرسول لي غلماناً رواقاً وفرشاً جميلاً، فعاد إليه وقال: هو متعال وليس بليل. وشاهدته على صورة كذا وكذا والناس ينشونه ويمودونه. فاغتاط غيضاً مجدداً حرك ما في نفسه مني أولاً، فراسلني بأن أزم بيتك ولا تخرج عنه، ولا تأذن

(١) رازان الأعلى والأسفل كورتان كانتا بسوار بغداد.

(٢) ضرب من آلات السرج.

أقول لها والحي قد فطنوا بنا  
لما ساءنى أن وحشتنى<sup>(١)</sup> سيوفهم  
وإناك لى دون الرشاح وشاح  
قال الثعالبي ومما أنشده لنفسه فى كتاب الفرج بعد الشدة :

لئن أشمت الأعداء<sup>(٢)</sup> صرفى ورحلتى  
فاصرفوا فضلى ولا ارتحل المجد  
مقام وترحال وقبض وبسطة  
كذاعادة الدنيا وأخلاقها الكد<sup>(٣)</sup>  
وسند ذكر بقية الأبيات من مقدمة ناشر كتاب « الفرج  
بعد الشدة ». ولقد وجدت قطع لمؤلف الكتاب عينه مدرجة  
فى الفصل الأخير من بحوثه تلامم مقاصد المؤلف لكتاب الفرج  
بعد الشدة . ومن أولى هذه القطع ما يأتى :

اصبر فليس الزمان مصطبراً  
وكل أحداه فنقشه  
كم من فقير غناه فى شيع  
قد نال خفضاً فى عيشه ودعه  
ومن جليل جلت مصائبه  
ثم تلافاه بعد ما وضعه  
فعاد بالمر آناً جذلاً  
وعاد أعداؤه له خضمه<sup>(٤)</sup>  
والقطعة الثانية :

متى تصفو لك الدنيا بخير  
إذا لم ترض منها بالزواج  
ألم تر جوهر الدنيا المصنقى  
ومخرجه من البحر الأجاج  
ورب غيفة فجأت بهول  
جرت بمسرة لك وابتهاج  
ورب سلامة بعد امتناع  
ورب مثقف بعد اعوجاج<sup>(٥)</sup>  
والقطعة الثالثة ، قال مؤلف الكتاب وفى محنة لحقتنى فكشفها الله  
تعالى فقلت :

هون على قلبك الموموم فكم  
قاسيت هما أدنى إلى الفرح  
ما الشر من حيث تنقيه ولا  
كل مخوف يفضى إلى الترح<sup>(٦)</sup>  
والقطعة الرابعة :

لئن عدائى عنك الدهر يا أملى  
وسل جسمى بالأستقام والعلل  
وشت شمل تصافينا وألقنا  
والدهر ذو غير والدهر ذو دل  
الحمد لله حمد الشاكرين على  
ما شاء من حادث يوهى قوى الأمل  
قد اشتكت بصروف الدهر والتحت

على فيك غواشى الحزن والوجل  
واعترضت منك بسقم شأنه خلل  
وبعد أمتى من عذر ومثنية  
عذراً يسرح بالألفاظ والرسل

(١) معجم الأدياء لياقوت « عن » ج ١٧ مادة محسن

(٢) فى معجم الأدياء أيضاً « وشحتنى » وهو الصواب فى مادة محسن

(٣) فى معجم الأدياء أيضاً « الحساد » عين المصدر .

(٤) ينمية الدهر للثعالبي ج ٢ ص ٣١٩ وما بعدها

(٥) الفرج بعد الشدة للتوحي ج ٢ ص ٢١٤ آخر طبعة .

(٦) كذلك ج ٢ ص ٢١٩ (٧) كذلك ج ٢ ص ٢٢٤

ومن لقائك لى الطلج أرحمهم  
قسط وأرقهم يدنى إلى الأجل  
فلمت آيس من رجح الوصال ولا  
عود العوافى ولا أمن من السبل<sup>(١)</sup>  
والقطعة الخامسة من قصيدة فى محنة لحقتنى :

أما للدهر من حكم رضى  
يدال به الشريف من الدنى .  
ويستعلى الرؤوس من الذبابى  
وينتصف الذكى من النبى  
ومن عاصاه دمع فى بلاء  
فليس بكاء عينى بالصعى  
وما أبكى لوفر لم يفسده  
زمان خان عهد فتى وفى  
ولا آيسى على زمن تولى  
بعيش ناصر غض ندى  
وما تلقى الحوادث إن ألت  
سوى قلب عن الدنيا سخي  
وصبر ليس تزره الليالى  
كترج اللو صافية الركى  
وليس بآيس من كان يخشى  
ويرجو الله من صنع قوى<sup>(٢)</sup>

أما القطعة السادسة فقد قال ناشر الكتاب : وله عند صرفه  
من تقلدة القضاء بالأهواز وقبض ضيعة من ضياعه وحضوره  
إلى بغداد وقد نقلنا منها أنفاً يتين مطلعهما : لئن أشمت الأعداء الخ

وما زلت جلدأ فى المهمات قبلها  
ولا غرو فى الأحيان أن يغلب الجلد  
فكم لىث غاب شردته ثعالب  
وكم من حسام فله غيلة غمد  
وكم جيفة تعلو وترسب درة  
ومنحة تقوى إذا ضعف السعد  
ألم تر أن الفيث يجرى على الربا  
فيحظى به إن جاد صيبه الوهد  
وكم فرج وانخطب بعناد نيله  
يجى على يأس إذا ساعد الجدد  
لقد أقربض الدهر السرور فإن يكن  
أساء اقتضاء فالقروض لها رد  
فكم فرحة تأتى على أثر ترحة  
وكم راحة تطوى إذا اتصل الكدد  
وكم منحة من محنة نستفيدها  
ومكروه أمر فيه للمرتجى وفد  
على أنى أرجو لكشف الذى غدا  
مليكا له فى كل نائبة رقد  
فيمنع منا الخطب والخطب صاغر  
وتمس عيون الدهر عنناهى الرمد  
ونعناض باللقيا من الين أعصرا  
ومضاعفة تبق ويسهلك البعد<sup>(٣)</sup>  
والقطعة السابعة هى :

قل لمن أودى به الترح  
كل هم بمده فرح  
غالط الأحداث مجتهداً  
كل ما قد حل منتزج  
لا تضن ذرعاً بنازلة  
وارمها بالصبر تنفسح  
وأزح بالراح طارقتها  
فجلاء القسرة القدح  
أنى بالمزج المريح أذى  
حدها إن شئت تنشرح<sup>(٤)</sup>

هذا ما تمكنت من العثور عليه عند مطالعتى لهذا الكتاب

(١) كذلك ج ٢ ص ٢٢٩ (٢) كذلك ج ٢ ص ٢٢٩

(٣) الفرج بعد الشدة للتوحي ج ٢ ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ من آخر طبعة

(٤) كذلك ج ٢ ص ٢٤٣